البناء الحضاريُّ في الرّمزيّة القرآنيّة

تأويل بنيويٌّ-وظيفيٌّ للرُّموز القرآنيّة بوَصفِها مِعمارًا للإنسان والعمران

محمّد محمود مرتضى *

ملخَّص البحث

يَندرجُ هذا البحثُ ضمنَ مشروعٍ تأويليٍّ يَسعى إلى إعادة قراءةِ القرآنِ الكريم، بوَصفِه خطابًا رَمزيًّا يَضطلعُ بمُهمّةٍ تَشكيلِ الوَعي الإنسانيِّ، وتَوجيهِه نحوَ بناءِ حضارةٍ مُتجذِّرةٍ في المَعنى. فالرَّمزيّةُ القرآنيّةُ تُطرحِ كبنيةٍ دلاليّةٍ مُتكاملةٍ تُعيد صياغةَ العلاقةِ بينَ الإنسانِ وذاتِه، وبينَ الإنسانِ والعالَمِ، وتُقدِّمُ له تصوُّرًا مَركزيًّا للتَّكليفِ، والزَّمانِ، والغَيبِ، والوجودِ.

يَتناولُ البَحثُ سبعةَ مداخلَ تُشكِّلُ الهَيكلَ الرَّمزيَّ للخطابِ القرآنيِّ: فيَبدأُ بتَمثُّلِ الإنسانِ ككائنٍ رمزيٍّ يتكوَّنُ من امتزاجِ الطِّينِ بالنَّفخةِ، ثمَّ يُعيد تأويلَ العمرانِ من خلالِ رَمزيّةِ الجِبالِ والمدنِ والبحارِ، ويُحلِّلُ القَصصَ القرآنيَّ بوصفِه سَردًا بنيويًّا يُؤسِّسُ لمَسارٍ مَشحونٍ بالعِبرةِ. كما يُفكِّكُ المُجتمعَ بوَصفِه نَسيجًا قِيَميًّا، ويُبرِزُ كيفَ تُؤدِّي مَفاهيمُ مثلُ الفِتنةِ، والنُّورِ، والطّاغوتِ دورًا رمزيًّا في تَشكيلِ السُّلوكِ

* أستاذ الفلسفة الغربيّة في جامعة المعارف- لبنان، ومدير مركز براثا للدراسات والبحوث، بيروت- بغداد.

الجَمعيِّ. ويأتي التَّكليفُ كأداةٍ تَربويّةٍ رَمزيّةٍ تُعيدُ صياغةَ الإرادةِ وتَوجيهَها نحوَ التَّزكية.

ويَمتدُّ التَّحليلُ إلى الغَيبِ والزَّمانِ بوَصفِهما البُعدَ الأعلى في صناعةِ المَعنى. فالغيبُ يُشكِّلُ أفُقًا مَعنويًّا يُضفي على الأفعالِ أوزانَها، على حين يُعادُ تَشكيلُ الزَّمنِ كنَسقٍ، فتُصبحُ الأيّامُ رُموزًا للدَّورانِ الحضاريِّ، والأجلُ مُحفِّزًا للمسؤوليّةِ، ويتحوَّلُ اللَّيلُ والنَّهارُ إلى علاماتٍ تُعيد إنتاجَ التَّوازنِ في وَعي الإنسانِ. وبهذا التَّداخُلِ الرَّمزيِّ بينَ الفردِ والزَّمانِ، بينَ الغَيبِ والواقع، يَنكشِفُ القرآنُ بوَصفِه كتابًا لصِياغةِ الحضارةِ عبرَ إعادةِ بناءِ الإنسانِ نفسِه كذاتٍ تَسكنُ المَعنى، وتَبني في ضَوءِ الرُّؤية.

المقدّمة

تتجلَّى الرَّمزيّةُ في القرآنِ الكريم كنظامٍ مَعرفيٍّ داخليٍّ يَنطوي على شيفراتٍ وُجوديّةٍ، تَتغلغَلُ في عُمقِ الوَعي، وتُوَجِّهُ إدراكَ الإنسانِ للعالَم، ووَعيَه بذاتِه، وسَيرَه في التّاريخ. فالرَّمزُ في النصِّ القرآنيِّ لا يَكتفي بتَرميزِ المَعنى، بل يَفتح بوّابةً على البنيةِ الكونيّةِ التي تَنتظِمُ وَفقَها السُّننُ الإلهيّةُ، فتَغدو كلُّ صورةٍ رَمزيّةٍ فيه كأنَّها لَبِنةٌ من لَبِناتِ المِعمارِ الحضاريِّ، الذي يُريدُ القرآنُ أن يُشيِّدَه في قلبِ الإنسانِ، ثمَّ في مُحيطِه الاجتماعيِّ والكونيّ. فحينَ يَضعُ اللّهُ تعالى صورةَ «النُّورِ» مثلًا له في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾[1]، فإنَّه لا يُقدِّمُ تَعريفًا لاهوتيًّا بقَدرِ ما يَرسُمُ مِعمارًا رَمزيًّا يُرشِدُ فيه الإنسانَ إلى مركزيّةِ النُّورِ في فَهمِ الحَقيقةِ، وفي تأسيسِ المُجتمعِ الذي تَتوازى فيه الأنوارُ القِيَميّةُ معَ الأنوارِ الحسِّيّة.

وهكذا، يَتبدَّى أنَّ الرَّمزَ القرآنيَّ هو وسيلةُ الوَصلِ العَميقةُ بينَ الغَيبِ والشَّهادةِ، بينَ المُطلَقِ والنِّسبيِّ، بينَ الوَحي والتّاريخ. فكلُّ رمزٍ ـ من الجَبلِ إلى البَحرِ، ومن الطِّينِ إلى النّارِ، ومن الكهفِ إلى المَدينةِ ـ يَحمِلُ في طيّاتِه دلالةً مُزدوجةً: ظاهرٌ مَحسوسٌ، وباطنٌ مُوحٍ، ظاهرٌ سَهلُ الإدراكِ، وباطنٌ يَدعو إلى التجلِّي. وإذا كانَتِ الحضاراتُ تُبنى على تصوُّراتِ الإنسانِ عن ذاتِه والكونِ، فإنَّ الرَّمزيّةَ القرآنيّةَ تُمثِّلُ البنيةَ التَّصوُّريّةَ التي يُعادُ من خلالِها تَشكيلُ الإنسانِ بوَصفِه خَليفةً، وإعادةُ بناءِ العُمرانِ بوَصفِه أمانةً. إنَّ القرآنَ لا يَكتفي بإعطاءِ قواعدَ أخلاقيّةٍ أو

1- سورة النّور، الآية 35.

نُظم تَشريعيّةٍ، وإنَّما يَغرِسُ تصوُّراتٍ رَمزيّةً تُؤسِّسُ لبنيةٍ ذهنيّةٍ روحيّةٍ تُشكِّلُ النّواةَ الأولى للحضارة.

لقد كانَ الرَّمزُ ـ عبرَ التّاريخِ الإنسانيِّ ـ أحدَ المَفاتيحِ التأسيسيّةِ للثَّقافاتِ. فالحَضاراتُ الكُبرى، كما بُنيَت على الحروبِ والمَواردِ، بُنِيَت أيضًا على المَعاني والرُّموزِ. ومن هنا، كانَت الرَّمزيّةُ القرآنيّةُ مُختلفةً عن التَّقاليدِ الرَّمزيّةِ الوَثنيّةِ أو الأسطوريّةِ، فهي تَفتحُ المَعنى على أُفُقِ التّأويلِ، وتُبقي الرَّمزَ حيًّا ومُولِّدًا عبرَ الزَّمنِ. فالرَّمزُ القرآنيُّ هو أصلٌ من أصولِ تَكوينِه، يَتجاوَزُ شرحَ الفِكرةَ، ويقومُ ببنائِها من جذورِ التَّأمُّلِ في الكلمةِ والصُّورةِ، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾[1]، حيثُ تَلتقي اللُّغةُ بالطَّبيعةِ، والفكرةُ بالوجودِ، والدِّينُ بالبيئةِ، لتكوينِ وحدةٍ رَمزيّةٍ شاملة.

وهذا ما يُبرِّرُ الحاجةَ المُلحّةَ اليومَ إلى قراءةِ القرآنِ الكريمِ قراءةً رَمزيّةً ـ وظيفيّةً، تتفاعَلُ مع جماليّةِ الرَّمزِ، وتَستكشِفُ أثرَه في بناءِ الإنسانِ القادرِ على الفعلِ الحضاريِّ. فالهُوّةُ التي تَفصِلُ بينَ المسلمينَ وحضارتِهم اليومَ إنَّما نشأتْ من تراجُعٍ ماديٍّ، وانقطاعٍ رمزيٍّ؛ إذْ لم نعدْ نقرأُ الجبالَ كدُروسٍ في الثَّباتِ، ولا الرِّياحَ كدَوراتٍ في التّحوُّلِ، ولا البحرَ كصورةٍ للاختبارِ. وكأنَّنا فقدْنا «أبجديّةَ الرَّمزِ»، فتَضاءلَت قُدرتُنا على تَحويلِ القرآنِ إلى مشروعٍ حضاريٍّ.

وإذا كانَتِ الدِّراساتُ التَّفسيريّةُ قد اهتمَّت بالمَعاني الظّاهرةِ للنّصِّ، ورَكَّزَت الدِّراساتُ الصُّوفيّةُ على الباطنِ العرفانيِّ، فإنَّ هذا البحثَ يَطمحُ إلى تقديمِ قراءةٍ ثالثة: قراءةٍ رَمزيّةٍ بنيويّةٍ ـ وظيفيّةٍ، تُنقِّبُ عن البنيةِ الرَّمزيّةِ للنصِّ من جهةٍ، وتَبحثُ عن وظيفتِها الحَضاريّةِ من جهةٍ أُخرى. وهي قراءةٌ تَنطلِقُ من أنَّ الرَّمزَ القرآنيَّ صانعٌ للمَعنى، ومُوجِّهٌ للحَضارة، وليسَ من ظِلالِ المَعنى ومُلحقاتِه.

وهنا، تتَّضحُ الحاجةُ إلى بناءِ رُؤيةٍ مُتكاملةٍ للرَّمزيّةِ القرآنيّةِ، تتجاوزُ الطّابعَ اللُّغويَّ إلى الطّابعِ الأنطولوجيِّ، وتتجاوزُ التَّعبيرَ المَجازيَّ إلى المعمارِ الحَضاريِّ. إنَّ ما يَطرحُه هذا البحثُ هو مُحاولةٌ لقراءةِ القرآنِ مثل «نصٍّ معماريٍّ رَمزيٍّ»، تَتشابَكُ فيه صُوَرٌ ومَفاهيمُ تُرسي مَلامحَ الإنسانِ الفاعلِ، والمُجتمعِ العادلِ، والعمرانِ المُتوازنِ. وبهذا المَعنى، فإنَّ الرَّمزَ القرآنيَّ هو المادّةُ الأوليّةُ في معملِ الوَعي الحضاريّ، وهو الجسرُ المُمتدُّ بينَ النصِّ والواقعِ، بينَ المُطلَقِ والحَياة.

1- سورة إبراهيم، الآية 24.

الرَّمز والإنسان نحو أنثروبولوجيا قرآنيّة رمزيّة

في بنيَةِ النّصِّ القرآنيِّ، يتجلَّى الإنسانُ بوَصفِه مَركزًا رمزيًّا ضمنَ شبكةٍ مُعقَّدةٍ من المَعاني والعلاقاتِ، حيثُ يَختلِطُ الطِّينُ بالنَّفخةِ، والسَّماءُ بالأمانةِ، والجسدُ بالتَّكليفِ. إنَّ الطَّريقةَ التي يَصوغ بها القرآنُ الإنسانَ تتنحَّى عن التَّوصيفِ السَّطحيّ، وتَغوصُ في التَّأويلِ، فتَستخدمُ الرَّمزَ لتَفكيكِ الكيانِ البشريِّ وإعادةِ تَركيبِه من جديدٍ في وَعي القارئ. فالخَلقُ من طينٍ هو تَرميزٌ لوَظيفةِ التَّواضُعِ، والانتماءِ إلى الأرضِ، وحدودِ الكائنِ، كما أنَّ النَّفخَ من الرُّوحِ لا يُمكِنُ اختزالُه إلى لحظةِ الإحياءِ، وإنَّما يُمثِّلُ الانفتاحَ الرَّمزيَّ للإنسانِ على البُعدِ الإلهيِّ في وجودِه، الذي يَتجاوزُ اللَّحمَ والدَّمَ، ويَجعلُ من الإنسانِ مَخلوقًا قابلًا للتَّكليفِ ومَسؤولًا عن المَصيرِ.

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1]؛ فيَظهرُ الرَّمزُ هنا بوَصفِه بُنيةً تأسيسيّةً في تشكيلِ الإنسانِ القرآنيِّ: الطِّين يَرمزُ إلى المُكوِّنِ الأرضيّ القابلِ للتَّشكُّلِ، والنَّفخةُ تُمثِّلُ البُعدَ العُلويَّ المُتسامي، وبينَهما تُبنى هويّةُ الإنسانِ باعتبارِه الكائنَ الوَحيدَ الذي يُشكِّلُ صلةً بينَ العَوالمِ.

لكنَّ هذا التَّشكيلَ الرَّمزيَّ لا يَكتمِلُ إلَّا في لحظةِ الوَعي بالحرِّيّةِ والاختيارِ؛ إذْ لا تكونُ الرَّمزيّةُ القرآنيّةُ مُجرَّدَ تَوصيفٍ للكائنِ، وإنَّما يَنبغي النَّظرُ إليها أيضًا بوَصفِها استدعاءً له للدُّخولِ في عمليّةِ تأويلٍ لذاتِه. فالإنسانُ يُلقَى في صِراعٍ رَمزيٍّ منذُ البَدءِ، وتُعرَضُ عليه «الأمانةُ»، تلكَ الكلمةُ التي لا يُمكِنُ فَهمُها خارجَ نطاقِ الرَّمزِ، فهي تُشيرُ إلى فكرةٍ ثَقيلةِ الحَجمِ والبُعدِ، تَتجاوَزُ التَّصوُّرَ المباشر.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2]؛ وهنا يتجلَّى البُعدُ الرَّمزيُّ بكثافة: لا يُمكِنُ فهمُ الأمانةِ على أنَّها «تكليفٌ» فقط، ولا على أنَّها «حريّةٌ» وحسب، إنَّها كنايةٌ عن مُجمَلِ الوجودِ الأخلاقيِّ والرُّوحيِّ الذي تَحمَّلَه الإنسانُ، بوَعي ناقصٍ أحيانًا، لكنْ بإرادةٍ حُرّةٍ. فحتَّى السِّياقُ الذي تُذكر فيه الأمانةُ يُقدِّمُ الجبالَ والسَّماواتِ بوَصفِها كياناتٍ رَمزيّةً تُمثِّلُ الثِّقَلَ، والامتدادَ،

1- سورة ص، الآيتان 71-72.

2- سورة الأحزاب، الآية 72.

والانضباطَ الكونيَّ، في مقابلِ الإنسانِ الذي يَقبَلُ حملَ ما أخفقَت هذه القوى في احتمالِه. فالآيةُ تُقدِّمُ تأويلًا رمزيًّا لبنيةِ الذّاتِ الإنسانيّةِ، بوَصفِها ذاتًا مُستعدّةً للخَطرِ، مُعرَّضةً للسُّقوطِ، لكنَّها ـ على الرّغم من ذلك ـ قادرةٌ على النُّهوضِ إلى مقامِ التَّكليف.

وَتأتي قصّةُ إبليسَ لتُعمِّقَ هذا البناءَ الرَّمزيَّ. فالامتناعُ عن السُّجودِ لآدمَ، كما يُمكِنُ النَّظرُ إليه في بُعدِه السَّطحيّ، يُمكِنُ تأويلُه على أنَّه لحظةٌ رَمزيّةٌ حاسمةٌ يُبنى فيها الإدراكُ القرآنيُّ للكرامةِ الإنسانيّةِ، نتيجةً لامتزاجِ المادّةِ بالأمرِ الإلهيِّ، وهو ما لم يُدرِكْه إبليسُ.

يقول تعالى: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[1]؛ ويُبرزُ هنا البُعدَ الرَّمزيَّ للطِّينِ والنّارِ بوَصفِهما تَمثيلًا لأنماطٍ وُجوديّة: فالنّارُ سريعةٌ، مُتقلِّبةٌ، حارقةٌ، لكنَّها لا تُنتِجُ حياةً، على حين أنَّ الطِّينَ بَطيءٌ، ثَقيلٌ، لكنَّه يَحتفِظُ بالرُّطوبةِ، ويَقبلُ الحياةَ.

وهكذا، فإنَّ الرَّمزَ القرآنيَّ يَبني، بتَقديمِ مُفاضَلةٍ بينَ عُنصرَين، تصوُّرًا وُجوديًّا عن الإنسانِ بوَصفِه كائنًا مُتوازِنًا بينَ القابليّةِ للمادّةِ، والارتباطِ بالرُّوحِ، والقُدرةِ على التَّفاعلِ مع الزَّمنِ والتّاريخ.

في هذا السِّياقِ، يتَّخِذُ الجسدُ في القرآنِ بُعدًا رَمزيًّا أيضًا. الجسدُ يأكلُ، يَشربُ، يَتزوَّجُ، يَمرضُ، ويَموتُ، لكنَّه في كلِّ ذلكَ يُطرَحُ كمَجالٍ تأويليٍّ لاختبارِ الأخلاقِ والمَعنى. إنَّ الصَّومَ، على سبيلِ المثالِ، صَحيحٌ أنَّه يَعني الانقطاعَ عن الأكلِ، لكنَّه في العُمقِ هو تَفعيلٌ لرَمزيّةِ الجسدِ بوَصفِه مَيدانًا للصِّراعِ بينَ الرَّغبةِ والتَّقوى، كما في قولِه تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ... لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[2]، فالصِّيامُ هنا وسيلةٌ لإعادةِ تَشكيلِ الجَسدِ تأويليًّا؛ ليَغدُوَ رَمزيًّا لا بيولوجيًّا، أي جَسدًا قادرًا على أن يكونَ أداةً للبناءِ لا للانغماس.

ولعلَّ أكثرَ ما يُميِّزُ الرُّؤيةَ القرآنيّةَ للإنسانِ هو هذا الوَعيُ الرَّمزيُّ المُستمرُّ، الذي يُنتِجُ الإنسانَ في تقاطُعِ الصُّورةِ والمَعنى. فالإنسانُ «ظلومٌ جَهولٌ» حينَ يَنسى رَمزيّتَه، ويَغدو «خليفةً» حينَ يَستعيدُها. لذلك، فإنَّ كلَّ تجربةٍ قرآنيّةٍ للإنسانِ ـ من الخَلقِ إلى التَّكليفِ، ومن السُّجودِ إلى السُّقوطِ، ومن المَرضِ إلى التَّوبةِ ـ

1- سورة ص، الآية 76.

2- سورة البقرة، الآية 183.

ليسَت إلَّا فصولًا في أنثروبولوجيا رَمزيّةٍ شاملةٍ، يُعادُ فيها تعريفُ الإنسانِ بوَصفِه كائنًا يُؤوَّلُ، وكائنًا يُبنى من الدّاخلِ قبلَ أن يُبني من الخارجِ.

المدن والجبال والبحار بوَصفها كتلًا رمزيّة

في البناء القرآنيِّ، لا تُطرحُ مظاهرُ الطَّبيعةِ والعمرانِ كمَوضوعاتٍ مُستقلّةٍ أو عناصرَ عَرضيّةٍ في السَّردِ، وإنَّما تُعرَضُ بوَصفِها علاماتٍ رمزيّةً مكثَّفةً تَنطوي على دلالاتٍ حضاريّةٍ تتجاوزُ وَظيفتَها الحسيّةَ أو الجغرافيّة. فالمكانُ في القرآنِ هو كيانٌ ناطقٌ، ذو شخصيّةٍ مَعنويّةٍ فاعلةٍ، يُشارِكُ في تَشكيلِ الوَعي الجَمعيِّ والاتِّجاهِ الأخلاقيِّ للإنسان. والمُدنُ هي مَواضعُ للاختبارِ، وليسَت مُجرَّدَ تَجمُّعاتٍ سكّانيّةٍ. والجبالُ أعمدةٌ للثَّباتِ أو رُموزٌ للرَّفضِ، وليسَت كتلًا صخريّةً، والبحارُ فضاءاتٌ للتّحوُّلِ والامتحانِ، لا مجرَّد مساحاتٍ مائيّةٍ. فهذهِ المَوجوداتُ كلُّها يَعرِضُها السِّياقُ القُرآنيُّ مُتحرِّكةً نابضةً بالحَياةِ والتَّفاعُلِ، في نسيجٍ رمزيٍّ يُعيدُ تأويلَ العمرانِ بوَصفِه معمارًا داخليًّا للإنسانِ، لا مُجرَّدَ هيكلٍ خارجيٍّ لمُجتمعِه.

تتكرَّرُ مُفردةُ «القَريةِ» في القرآنِ بوَصفِها تَمثيلًا رَمزيًّا للكيانِ المُجتمعيِّ، لكنَّها لا تُقدَّمُ بحيادٍ سوسيولوجيّ، وإنَّما تُغلَّفُ بسياقٍ أخلاقيّ، يَربِطُ بينَ الفسادِ أو الإيمانِ ومَصيرِ المَكانِ.

في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾[1]؛ يَظهَرُ المكانُ ككائنٍ مُتفاعلٍ يتغيَّرُ تَبعًا لمنظومةِ القِيَمِ التي تَسودُ داخلَه. فحينَ تَكفرُ القريةُ يَنزلُ بها، بالإضافةِ إلى العذابِ الخارجيِّ، عَذابٌ من داخلِها، عُبِّرَ عنه بلفظِ «فأذاقَها»، واتَّخَذَ هيئةَ لباسٍ يُحاصِرُ الجسدَ، في دلالةٍ على أنَّ العمرانَ الذي يَفقِدُ قيمتَه الأخلاقيّةَ لا يَنهارُ بفعلِ عواملَ طبيعيّةٍ، وإنَّما يَتفسَّخُ من داخلِه، ويَخسرُ أمنَه ورِزقَه وانسجامَه.

وإذا كانَتِ القُرى رَمزًا للنَّسيجِ المُجتمعيِّ، فإنَّ «المدنَ» في القرآنِ تَرتبطُ غالبًا بمَراكزِ القوّةِ والغَطرسةِ، مثلَ «مَديَن» و«مَدائن»، فتَظهَرُ رَمزيّتُها في مفارقةٍ واضحة: تجمُّعِ البَشرِ لا يُحقِّقُ العمرانَ، ما لم يكنْ محكومًا بمَنظومةٍ من القِيَمِ التي يَحترِمُها هذا التجمُّعُ، ويتَّخِذَها أساسًا في تَنظيمِ العَلاقاتِ داخلَهُ. وفي حالِ

1- سورة النّحل، الآية 112.

فقدانِ هذه المنظومةِ القِيَميّةِ يتحوَّلُ العمرانُ إلى وثنٍ جَديد. فالقرآنُ يَصِفُ حالَ قوم ثمود الذين بنَوْا: ﴿ ... ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾[1]، لكنَّه في الوقتِ ذاتِه يَكشِفُ هشاشةَ هذا البناءِ حينَ يُقامُ على الاستكبارِ والتَّكذيب، لا على التَّواضُعِ والإيمانِ، فيتبدَّى العمرانُ هنا كرَمزٍ للغُرورِ البَشريِّ حينَ يَنفصِلُ عن الوَظيفةِ الأَخلاقيّة.

أمّا «الجبالُ»، فتُشكِّلُ في المَتنِ القرآنيِّ رَمزًا مركزيًّا مُتعدِّدَ الدّلالاتِ؛ فهي تَحضُرُ كرُموزٍ للصُّمودِ والثَّباتِ، وأحيانًا كمَواقعَ للوَحي، كما في حادثةِ مُوسى عليه السلام، حيثُ ارتبطَ الجبلُ بظُهورِ العَهدِ، وبالرَّجفةِ، وبطلبِ الرُّؤيةِ. لكنَّ الرَّمزَ لا يتوقَّفُ هنا، فالقرآنُ يَستعمِلُ الجبلَ أيضًا كنموذجٍ عاقلٍ يَعتذِرُ عن حملِ الأمانةِ، ويخشع لله، حين يقول: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[2]. هنا تتحوَّلُ الجبالُ إلى كائناتٍ رمزيّةٍ تَشعُرُ، وتَخشى، وتَنفعِلُ، وهذا يكشفُ أنَّ الثِّقَلَ الحقيقيَّ يتجسَّدُ في القابليّةِ للاستجابةِ للحقِّ، وأنَّ الثَّباتَ الظّاهريَّ لا يَعني بالضَّرورةِ الثَّباتَ الوُجوديَّ أمامَ التَّكليف.

وبهذا، يُصبِحُ الجبلُ رَمزًا مُزدوجًا: في الظّاهرِ ثباتٌ، وفي الباطنِ ضَعفٌ، على حين يُدعى الإنسانُ إلى أن يكونَ في الظّاهرِ هَشًّا وفي الباطنِ راسخًا. وفي قلبِ هذا الانقلابِ الرَّمزيِّ تَظهر مُهمّةُ التَّكوينِ الحضاريِّ للإنسان.

أمّا «البحر»، فيَظهرُ في النَّصِّ القرآنيّ كفَضاءٍ رَمزيٍّ للتّحوُّلِ والانكشافِ، لا مُجرَّد مجالٍ للنَّقلِ أو الصَّيد. فالبحرُ في القرآنِ هو موضعِ النَّجاةِ، كما هو موضعُ الهَلاكِ، فيهِ غَرَقُ فرعونَ، ونَجاةُ مُوسى، وفيه تتكشَّفُ هشاشةُ القوّةِ البشريّةِ أمامَ الوجودِ الإلهيِّ.

في قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[3]؛ يتحوَّلُ البحرُ من كيانٍ مائعٍ إلى طَودٍ، أي إلى جبلٍ، في لحظةٍ رَمزيّةٍ عَميقةٍ، يتحوَّلُ فيها ما هو سائلٌ إلى ما هو صلبٌ، في كنايةٍ رَمزيّةٍ عن انقلابِ المَوازينِ حينَ تتدخَّلُ اليَدُ الإلهيّةُ. لا يَعودُ البحرُ، إذًا، مجرَّدَ مَعبَرٍ جغرافيٍّ، وإنَّما يَنطلقُ في رحلةِ التَّحوُّلِ الجَذريِّ الرَّمزيّةِ، المُصاحبةِ للرِّحلةِ الإيمانيّةِ وتَحوُّلاتِها ومُنعطفاتِها، فتَذوبُ الحدودُ بينَ الأرضِ والماءِ، بينَ المُمكِنِ

1- سورة الحجر، الآية 82.

2- سورة الحشر، الآية 21.

3- سورة الشّعراء، الآية 63.

والمُستحيل، وتُبنى لحظةُ النَّجاة على الطّاعة المُطلَقة، لا على الحساب المادِّيّ.

إنَّ رمزيّةَ العمران في القرآن تُعيدُ خلقَ المكان في ضَوءِ التَّفاعُلِ القِيَميِّ. فالعمرانُ نتيجةُ توازنٍ بينَ الظّاهرِ الحسِّيِّ والباطنِ الأخلاقيّ. المَدينة، الجبل، البَحر، كلُّها تُمثِّلُ رُموزًا مُتشابكةً في بنيةٍ قرآنيّةٍ تُؤمِنُ أنَّ العمرانَ يَبدأُ من الدّاخل، من بناء الوَعي، ثمَّ يَتموضَعُ خارجيًّا في الفَضاء. وليس صدفةً أن يَختمَ القرآنُ حديثَه عن الحضارات البائدة بدعوةٍ إلى السَّيرِ في الأرض والنَّظر: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1]؛ لأنَّ الأرضَ نفسَها، بمَواقعِها ومَبانيها، تحوَّلَت إلى سجلٍّ رمزيٍّ حيٍّ للمُدنِ التي ارتفعَت فسقَطَت، والجبالِ التي احتَضنَتِ الوَحيَ، والبحارِ التي كشفَتِ الغرورَ الإنسانيَّ في أوجِ سُلطتِه.

الرَّمز والتّاريخ

لا تُروى القِصَصُ في القرآن بوَصفِها سَردًا زمنيًّا لأحداثٍ من الماضي، ولا تُستعمَلُ كشواهدَ تاريخيّةٍ مَحضةٍ، وإنَّما تُمثَّل على هيئةِ رموزٍ مُتحرِّكةٍ، تُفكِّكُ البنيةَ النَّفسيّةَ والمُجتمعيّةَ للإنسان، وتُعيدُ تَشكيلَها عبرَ نموذجٍ رمزيٍّ يَتجاوزُ حدودَ التّاريخ. إنَّ القَصص القرآنيَّ ـ وقد وُصفَ بأنَّه: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[2] ـ يَتعاطَى مع الوقائعِ كأنماطٍ قابلةٍ للتَّكرار، تَنطوي على دلالاتٍ حضاريّةٍ تَشتغلُ في الحاضرِ كما اشتغَلَت في الماضي، وتَستبِقُ المَصيرَ كما تُفسِّرُ المَنبعَ. ولذلك، فإنَّ الرُّؤيةَ القرآنيّةَ للتّاريخ هي تأويلٌ رمزيٌّ للحَركةِ الإنسانيّةِ: صراعٌ بينَ الحقِّ والباطلِ، بينَ الحريّةِ والاستعباد، بينَ التَّوحيدِ والطُّغيان، بينَ البناءِ والهَدم.

وتتجلَّى هذه الرُّؤيةُ الرَّمزيّةُ بوُضوحٍ في قصّة يوسفَ، التي تُقدَّمُ كبنيّةٍ رمزيّةٍ مُتكاملةٍ تَصِفُ مسارَ التحوُّلِ الحضاريِّ، من القاعِ إلى الذّروة، من الهُوّةِ إلى العَرش. فالبئرُ في مَطلعِ القصّةِ يتجاوزُ مفهومَ الحُفرةِ المادِّيّة، ليُعرَضَ على أنَّه رمزٌ للخذلانِ الأوَّل، للمُؤامرةِ التي تُرتكَبُ من داخلِ النَّسيجِ القَريب، في كنايةٍ عن أنَّ السُّقوطَ يَبدأُ من الخيانةِ الدّاخليّة. ويُصبحُ السِّجنُ، في منتصفِ القصّةِ مكانًا للتأمُّل، ولإعادةِ بناءِ الذّات، وفي الوقت نفسِه بوّابةً غيرَ مُتوقَّعةٍ إلى السُّلطة، في كشفٍ عن طبيعةِ الحركةِ الحَضاريّةِ التي يَندرُ أن تَسيرَ في خطوطٍ مُستقيمة،

1- سورة يوسف، الآية 109.

2- سورة يوسف، الآية 3.

ويغلبُ عليها أن تَنعطِفَ وتتقلَّبَ وتتجاوَزَ. ثم يُتوَّجُ هذا المسارُ بلحظةِ الخروجِ من السِّجنِ إلى الحُكمِ، كرَمزٍ لتَمكينِ الوعي بعدَ الاختبارِ، وانتصارِ البَصيرةِ بعدَ التَّهميشِ. إنَّ العرشَ الَذي يَجلسُ عليه يوسفُ في نهايةِ القصّةِ هو تتويجٌ رمزيٌّ لمَسارٍ طويلٍ من التَّنقيحِ الدّاخليِّ، ومن الاشتغالِ على الذّاتِ، ومن تَجاوُزِ الغرائزِ إلى النُّضجِ.

في المُقابلِ، تأخذُ قصّةُ فرعونَ بُعدًا رمزيًّا مضادًّا؛ فهي تُروى كتَحذيرٍ دائمٍ من اختلالِ المعمارِ الحضاريّ، حين يتأسَّسُ على القوّةِ المُجرَّدةِ من القِيَمِ، وعلى السُّلطةِ المُنفصِلةِ عن السَّماءِ. فرعونُ في القرآنِ يُصبِحُ رمزًا للاستبدادِ المُطلَقِ، للكِبرِ الذي يَعمى عن رُؤيةِ الهَشاشةِ، وللبنيةِ التي تَنهارُ حينَ تُفرَّغُ من مَعناها الإلهيِّ.

لقد جمعَ اللّهُ في شخصيّةِ فرعونَ كلَّ خصائصِ التَّفكُّكِ الرَّمزيّ: ادِّعاءَ الألوهيّةِ، التّحكُّمَ بمَصائرِ النّاسِ، بناءَ الصُّروحِ على الفَراغِ، ومُطاردةَ رسالاتِ التَّحريرِ، في كنايةٍ عن الطُّغيانِ الذي يَنهارُ حينَ يَغفلُ عن الحدودِ الرَّمزيّةِ التي تَحكمُ العمرانَ. يقول تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴾[1]، فيَجعلُ من النِّهايةِ المُفجِعةِ لهذا النَّموذجِ عِبرةً رمزيّةً تُقرأُ كبيانٍ للثَّمنِ الذي يَدفعُه العمرانُ حينَ يَنفصِلُ عن قِيَمِ التَّواضُعِ والعَدلِ والرِّسالةِ.

لكنَّ أكثرَ اللَّحظاتِ تَكثيفًا للرَّمزيّةِ التّاريخيّةِ، في القرآنِ، تتجلَّى في الجمعِ بينَ القصصِ وتَحوُّلاتِ الأممِ، حينَ يُربَطُ مَصيرُ الشُّعوبِ بطريقةِ استقبالِها للحقِّ. في قوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ ﴾[2]؛ العُقوباتُ ثابتةٌ كوقائعَ، لكنَّها تتبدَّلُ كرموزٍ لطبيعةِ الانهيارِ الحَضاريِّ: مَن تُؤسَّسُ حضارتُه على العلوِّ يُخسَفُ به، ومَن تُبنى حضارتُه على الضَّجيجِ والتكبُّرِ تُسحَقُ بصَيحةٍ، ومَن يَعتمِدُ على العَتادِ يُرسَلُ عليه ما لا يُرَدُّ، فيتحوَّلُ التّاريخُ في القرآنِ إلى مرآةٍ رمزيّةٍ تكشِفُ عن القانونِ الأخلاقيِّ للحضارةِ.

وتَبرُزُ رمزيّةُ «التّحوُّلِ» أيضًا في الحركاتِ الصَّغيرةِ داخلَ القصصِ، كما في قصّةِ قومِ يونسَ، التي يَنقلِبُ فيها مَصيرُ مَدينةٍ بأكملِها من الهَلاكِ إلى النَّجاةِ

1- سورة النّازعات، الآيتان 25-26.

2- سورة العنكبوت، الآية 40.

حيـنَ تتحقَّـقُ التَّوبـةُ. يقـول تعالـى: ﴿ فَلَـوْلَا كَانَـتْ قَرْيَـةٌ ءَامَنَـتْ فَنَفَعَهَـآ إِيمَٰنُهَـآ إِلَّا قَـوْمَ يُونُـسَ لَمَّـآ ءَامَنُـواْ كَشَـفْنَا عَنْهُـمْ عَـذَابَ ٱلْخِـزْيِ ﴾[1]؛ وهنـا تتحـوَّلُ المدينـةُ مـن كيـانٍ مـادِّيٍّ إلـى كائـنٍ رَمـزيٍّ يَستجيبُ أو يُعانِـدُ، ويَعيـشُ أو يَمـوتُ، تَبعًـا لقُـدرةِ أفـرادِه علـى التّبـدُّلِ الدّاخلـيّ. فالتّاريـخُ يشـملُ مـا فعلَـه الحُـكّامُ، ومـا قَبِلَـه النّـاسُ أو رَفضـوهُ، مـا استجابوا لـه أو أعرضـوا عنـه، ممّـا يَجعـلُ الوعـيَ الجَمعـيَّ أحـدَ مفاتيـحِ الفَهـمِ الحَضـاريّ للقصـص.

إنَّ القَصـصَ القرآنـيَّ، فـي مُحصِّلتِـه، هـو خارطـةٌ رمزيّـةٌ للتّاريـخِ، تَرسُـمُ خطوطًـا عامّـةً لصُعـودِ الحضـاراتِ وسُـقوطِها، وتُقـدِّمُ نَمـاذجَ كونيّـةً تُعيـدُ تأويـلَ الماضي بوَصفِه مـرآةً للحاضـرِ. فهـو لا يُعنـى بالزَّمـانِ بمِقـدارِ مـا يُعنى بالنَّسَـقِ، ولا بالموقعِ الجغرافـيِّ بمِقـدارِ مـا يُعنـى بالسُّـلوكِ الرَّمـزيّ، ولا بالشُّـخوصِ كمُجـرَّدِ أفـرادٍ، بمقـدارِ مَـا يُعنـى بهم كنَمـاذِجَ عامّـةٍ، وتَمثيـلاتٍ رمزيّـةٍ لقـوى حضاريّـةٍ تتحـرَّكُ فـي مَجـرى التّأريـخِ الإلهـيِّ للإنسـانِ.

وبهـذا، يُصبِـحُ كلُّ نبـيٍّ رَمـزًا لوَظيفـةٍ حضاريّـةٍ: إبراهيـمُ رَمـزٌ للبَحـثِ عـن التَّوحيـدِ فـي مُواجهـةِ عبـادةِ الكواكـبِ والآبـاءِ، نـوحٌ رمـزٌ للمُقاومـةِ الطَّويلـةِ وسـطَ التَّجاهُـلِ الجَمعـيِّ، مُوسـى رمـزٌ للتّحـرُّرِ مـن عبوديّـةِ الدّاخـلِ والخـارجِ، ومحمّـد ﷺ رمـزٌ للجامعـةِ التَّوحيديّـةِ التـي جمعَـت بيـنَ الوَحـي والتَّنظيـم.

لذلـكَ، فـإنَّ قـراءةَ القَصـصِ القرآنـيِّ، بوصفِـه بنيـةً رمزيّـةً، هـو بمثابـةِ إعادةِ اكتشـافِ وظيفتِـه الحَضاريّـةِ؛ فهـو يَسـردُ ليُربِّـيَ، ويُقـدِّمَ العِبـرةَ، وفـي الغالـبِ يُخفـي العِبـرةَ فـي قلـبِ الرَّمـزِ، ويَجعـلُ مـن التَّكـرارِ إعـادةَ نَحـتٍ للمَعنـى مـن زوايـا مُختلفـةٍ؛ ليَغـدُوَ التّاريـخُ القرآنـيُّ نَوعًـا مـن التَّذكيـرِ المُستمرِّ بـأنَّ الحضـارةَ تَبـدأُ مـن الدّاخـلِ، مـن تصوُّرِ الإنسـانِ عـن ربِّـه وعـن نفسِـه وعـن الآخَريـنَ، وأنَّ كلَّ سـقوطٍ خارجـيٍّ مَسـبوقٌ غالبًـا بخَلـلٍ رَمـزيٍّ داخلـيّ، وكلَّ نهـوضٍ حضـاريّ يَبـدأ مـن إعـادةِ تأويـلِ الـذّاتِ علـى ضَـوءِ القَصـصِ.

الرَّمز والمُجتمع

إذا كانَ الإنسـانُ فـي القـرآنِ كائنًـا رمزيًّـا يتأرجـحُ بيـنَ الطِّيـنِ والنَّفخـةِ، وإذا كانَـتِ الطَّبيعـةُ والعمـرانُ تُطرحـانِ كفَضـاءاتٍ رَمزيّـةٍ تُعيـد تَشـكيلَ الوَعـي، فـإنَّ المجتمـعَ

1- سورة يونس، الآية 98.

بـدَورِه يَظهَـرُ فـي النـصِّ القرآنـيِّ ككائـنٍ رمـزيٍّ يَنبـضُ بالقِيَـم، ويتشـكَّلُ بمنظومـةٍ مـن المَعاني التي تتجاوزُ العلاقاتِ الماديّةَ إلى البُعدِ التّأويليِّ العَميـق. فالأمّـةُ في القـرآنِ هي صـورةٌ رَمزيّـةٌ لحالـةٍ مـن الالتحـام القِيَميِّ بيـنَ الأفـرادِ، حالـةٍ تَتَشـكَّلُ حيـنَ يَرتبـطُ الإنسـانُ بغَيـرِه مـن مُنطلَـقٍ رِسـاليٍّ، فَيُبنـى المجتمـعُ بوَصفِـه حامِـلًا لرسـالةٍ، لا مُجـرَّدَ تجمُّـعٍ اسـتهلاكيٍّ أو سياسـيٍّ.

ولهَـذا، فـإنَّ المفهـومَ القرآنـيَّ للأمّـةِ يَنبثِـقُ مـن الوظيفـةِ الحَضاريّـةِ، كمـا فـي قولـه تعالـى: ﴿ كُنتُـمْ خَـيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ تَأْمُـرُونَ بِٱلْمَعْـرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَـنِ ٱلْمُنكَـرِ وَتُؤْمِنُـونَ بِـٱللَّهِ ﴾[1]؛ حيـثُ تُبنـى الأمّـةُ علـى قاعـدةٍ قِيَمِيّـةٍ لا علـى رابطـةٍ ماديّـةٍ، ويُشـتَقُّ وجودُهـا مـن حراكِهـا الأخلاقـيِّ لا مِـن حدودِهـا الجغرافيّـة.

إنَّ هـذا البنـاءَ الرَّمـزيَّ للمجتمـعِ يَبـدأُ مـن شـبكةِ المَفاهيـم التـي يُعيـد القـرآنُ إنتاجَهـا مـن داخـلِ المَنظومـةِ اللُّغويّـةِ اليَوميّـة، ليَمنحَهـا بُعـدًا حضاريًّـا عَميقًـا. فالقـرآنُ لا يُعرِّفُ «الخيـرَ» أو «الشّـرَّ» أو «الفاحشـةَ» أو «العـدلَ» أو «التَّقـوى» كمَفاهيـمَ جامـدةٍ، وإنَّمـا يُرمِّزُهـا فـي سـياقاتٍ تتجـاوزُ المَعنـى القاموسـيَّ إلـى المَعنـى الوُجـوديِّ.

«الفتنـةُ»، مثـلًا، تظهـرُ فـي النـصِّ كاختبـارٍ رَمـزيٍّ يَطـالُ تماسُـكَ المجتمـعِ وتكوينَـه الدّاخلـيَّ، كمـا فـي قولـه تعالـى: ﴿ وَٱعْلَمُـوٓاْ أَنَّمَـآ أَمْوَٰلُكُـمْ وَأَوْلَٰدُكُـمْ فِتْنَـةٌ ﴾[2]؛ ليُفهَـمَ مـن خلالِهـا أنَّ التَّهديـدَ الأكبـرَ للمُجتمـعِ، كمـا يأتـي مـن الخـارجِ، يأتـي أيضًـا من المبالغـةِ فـي التعلُّـقِ بالمُمكِنـاتِ الماديّـةِ حيـنَ تَفقِـدُ بوصلتَهـا القِيَميّـةَ.

ويَمضـي القـرآنُ فـي رسـمِ هـذه الشَّـبكةِ الرَّمزيّـةِ مـن القِيَـم، فيَجعـلُ مِـنَ «الميـزانِ»، مَثـلًا، رَمـزًا للعَدالـةِ، كنظـامٍ كونـيٍّ يَحكُـمُ العلاقـاتِ البشـريَّةَ والطَّبيعيّـةَ معًـا، إذ يقـول تعالـى: ﴿ وَٱلسَّـمَآءَ رَفَعَهَـا وَوَضَـعَ ٱلْمِـيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِـيزَانِ ﴾[3]. وهنـا، تَنصهِرُ القِيمـةُ الأخلاقيّـةُ فـي البنيـةِ الكونيّـةِ؛ ليُفهَـم أنَّ المجتمـعَ الـذي يُقيـمُ الميـزانَ هـو الـذي يَتناغَـمُ مـع السَّـماءِ، وهـو ذاتُـه الـذي يتأمَّـلُ كيـفَ تتجلَّـى العَدالـةُ فـي حركـةِ الكواكـبِ والتَّوازُنـاتِ الطَّبيعيّـةِ، ثـمَّ يُترجِمُهـا فـي مساحاتِه السِّياسـيّةِ والاقتصاديّـة.

وفـي إطـارِ هـذه البنيـةِ الرَّمزيّـةِ، تُطـرَحُ بعـضُ المَفاهيـم بوَصفِهـا تَهديـدًا حقيقيًّـا لتماسُـكِ المجتمـعِ، مثـل «الغيبـة» التـي تُقـدَّم كعمـلٍ هـدّامٍ يُقَـوِّضُ الرّابطـةَ الاجتماعيّـةَ،

1- سورة آل عمران، الآية 110.

2- سورة الأنفال، الآية 28.

3- سورة الرّحمن، الآيتان 7-8.

وتُرمَّزُ بصورةٍ حسِّيّةٍ عَنيفةٍ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾[1]؛ ليَغدوَ فعلُ الغيبةِ صورةً رَمزيّةً للهَتكِ والافتراسِ الدّاخليّ، حيثُ يُستبدَلُ البناءُ الاجتماعيُّ بالاستهلاكِ الرَّمزيِّ لأجسادِ الآخَرينَ.

كما يُطرَحُ «الفسادُ» في القرآنِ بوَصفِه انحرافًا رمزيًّا عن الوَظيفةِ الأخلاقيّةِ للمُجتمعِ، لا كإخلالٍ بالقوانينِ فحَسب. فحينَ يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[2]، فإنَّ المُفارَقةَ الرَّمزيّةَ تكشِفُ عن أنَّ أخطرَ أشكالِ الفَسادِ تُمارَسُ في لَبوسِ الإصلاحِ، أي حينَ يَختلُّ الميزانُ الرَّمزيُّ للمَعنى، ويُحرَّفُ اللَّفظُ عن مَوضعِه الأخلاقيِّ. فالمُجتمعُ يَفسُدُ حينَ يُحرَّفُ رَمزُه المَركزيُّ؛ حينَ تُستبدَلُ التَّسميةُ، فيُسمَّى الجشعُ كفاءةً، والخداعُ ذكاءً، والظُّلمُ سياسةً، فيَتشوَّهُ المَعنى ويُبتلَعُ الدّاخلُ.

ويتكرَّرُ هذا النَّمطُ في طرحِ مُفرداتٍ أُخرى مثلِ «الطّاغوتِ»، الذي يُفهَمُ كمَنظومةٍ رمزيّةٍ تَعني كلَّ ما يَتجاوزُ حدَّه من سُلطةٍ أو مادّةٍ أو فكرةٍ، ويتحوَّلُ إلى مركزٍ بديلٍ عن اللّه في تنظيمِ الوَعي الجماعيّ. كما يَظهَرُ «النُّورُ» كرمزٍ مركزيٍّ للوَعي الجَمعيّ، كأفُقٍ يُضيءُ طَريقَ المجتمعِ، في مقابلِ «الظُّلماتِ» التي تَتراكَمُ رمزيًّا لتُشيرَ إلى الجهلِ، والغَفلةِ، والاستعبادِ. يقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[3]؛ فتُصبِحُ الأُمَّةُ المُؤمنةُ هي التي تُنتقَلُ جماعيًّا من الغَفلةِ إلى البَصيرة، عن طريقِ استردادِ المَعنى من مركزِه الإلهيّ.

ومن أعظمِ الرُّموزِ المُجتمعيّةِ، في القرآن، يأتي مفهومُ «الشَّهيد» الذي يُرمَّزُ ليَعني الحاضِرَ دَومًا؛ مَن يَشهَدُ على عصرِه، ومَن لا يُسقِطُ مسؤوليّتَه، وهو ما يتجلّى في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[4]. فهنا لا يُمنَحُ مفهومُ الشَّهادةِ للمَوتى، وإنَّما للأحياءِ الذينَ يُمثِّلونَ «الوسطَ»، بمَعناهُ القِيَميِّ، الذينَ يَحضرونَ في قلبِ العالَمِ كشُهودٍ على المَعنى، وعلى الانحرافِ، وعلى إمكانِ العَودة.

1- سورة الحجرات، الآية 12.

2- سورة البقرة، الآية 11.

3- سورة البقرة، الآية 257.

4- سورة البقرة، الآية 143.

وبهـذا المَعنـى، تُصبِـحُ الأُمَّـةُ القرآنيّـةُ حالـةً رمزيّـةً متـى تَحقَّقَـت شـروطُها القِيَميّـةُ تَكوَّنَـت، ومتـى غابَـت تبعثـرَت. الأُمَّـةُ ليسَـت شِـعارًا ولا هويّـةً نمطيّـةً، وإنَّمـا هـي شـبكةٌ مـن المَعانـي الحيّـةِ التـي تُعيـدُ تَشـكيلَ الوجـودِ الجَمعيِّ، والتـي تَشـتغلُ على مُستوى العَـدلِ، المِيـزانِ، الشَّـهادةِ، النُّـورِ، الإيمـانِ، وتُقـاوِمُ على مسـتوى الطُّغيـانِ، الظُّلمـاتِ، الفِتنـةِ، الافتـراءِ، والغَفلـة.

الرَّمز والتَّكليف

فـي البنيَـةِ القرآنيّـةِ، لا يَظهَـرُ التَّكليـفُ بوَصفِـه أمـرًا قانونيًّـا مَحضًـا، ولا كعِـبءٍ تَشـريعيٍّ مَفـروضٍ مـن خـارجِ الـذّات، وإنَّمـا يُقـدَّمُ كمَنظومـةٍ رَمزيّـةٍ عَميقـةٍ تُعيدُ تَشـكيلَ العلاقـةِ بيـنَ الإنسـانِ والوجـودِ، بيـنَ الفـردِ والجَماعـةِ، بيـنَ الزَّمـنِ والمَصيـرِ. فالتَّكليـفُ في القـرآنِ يُفهَـمُ مـن خـلال مـا يُبنـى عليـه مـن رَمزيّـةٍ وجوديّـةٍ، تَجعـلُ كلَّ فعـلٍ ـ مَهمـا بَـدا بَسـيطًا ـ حامـلًا لمَعنًـى يَتجـاوزُ حـدودَ الظّاهـرِ، ويَغـوصُ فـي عُمـقِ المقصـدِ التَّكوينـيِّ للإنسـانِ، بوصفِـه كائنًـا أخلاقيًّـا مُتَّجِهًـا نحـوَ التَّزكيـةِ والتَّحقُّـق.

ولعـلَّ الصَّـلاةَ، التـي تُوضَـعُ فـي قلـبِ المَنظومـةِ التَّكليفيّـةِ، هـي بنـاءٌ رَمـزيٌّ مُتكامِـلٌ، تَتداخَـلُ فيـه الزَّمانيّـاتُ والمَكانيّـاتُ، وتَشـتبِكُ فيه الجسـدانيّةُ بالـرُّوحِ، واللُّغةُ بالسَّـكينةِ، والتَّوجيـهُ بالمُقابَلـةِ. فحيـنَ يتوجَّـهُ الإنسـانُ نحـو القِبلـةِ، فهـو يُعيـدُ تَرتيـبَ وجـودِه على محـورٍ رَمـزيٍّ؛ الكعبـةُ تُمثِّـلُ مركـزًا رمزيًّـا لوحـدةِ التوجُّـهِ، وانصهـارِ الـذّاتِ فـي مسـارٍ واحـدٍ مع الأمّـةِ، ومعَ التّاريـخِ، ومعَ السَّـماءِ.

الصَّـلاةُ هـي، أيضًـا، حركَـةٌ رَمزيّـةٌ تضـعُ الجسـدَ تحـتَ وصايـةِ الـرُّوحِ، وتُكثِّـفُ الزَّمـنَ فـي لحظـةِ تَوحيـدٍ، وتُشـحَنُ بالذِّكـرِ لتتحـوَّلَ مـن عـادةٍ إلى إدراكٍ. يقـول تعالـى: ﴿إِنَّـنِيٓ أَنَـا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَـا۠ فَٱعۡبُـدۡنِي وَأَقِـمِ ٱلصَّلَـوٰةَ لِذِكۡـرِيٓ﴾[1]، حيـثُ تتجلَّـى العلاقـةُ الرَّمزيّـةُ بيـنَ العِبـادةِ والذِّكـرِ، وبيـنَ الفعـلِ الظّاهـريِّ والوَعـي الباطنـيّ، لتُصبِـحَ الصَّـلاةُ نقطـةَ تـلاقٍ بيـنَ الأمـرِ الإلهـيِّ وتَحـوُّلِ الإنسـانِ نحـوَ المَعنـى.

وفـي الصِّيـام تتكثَّـفُ الرَّمزيّـةُ فـي بُعدِهـا التَّكوينـيّ؛ إذ يُطلَـبُ من الإنسـانِ الإمسـاكُ مـن أجـلِ إعـادةِ تَشـكيلِ العَلاقـةِ بيـنَ الرَّغبـةِ والمَعنـى، وبيـنَ الحاجـةِ والهَـدفِ، فيَصيـرُ الجـوعُ رَمـزًا لاختبـارِ التَّـوازُنِ الدّاخلـيِّ، ويتحـوَّلُ الامتنـاعُ عـن المُبـاحِ إلى مرآةٍ تُكشَـفُ فيها حَقيقـةُ الإرادةِ.

1- سورة طه، الآية 14.

أمّـا الصِّيـامُ، فهـو مسـاحةٌ رَمزيّـةٌ لتَطهيـرِ الـذّاتِ مـن عبوديّـةِ النَّـزواتِ، وتحريـرِ الوَعـي مـن التَّبعيّـةِ للمُحفِّـزاتِ الخارجيّـة. وحيـن يقـول اللّـه تعالـى: ﴿ كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ ٱلصِّيَـامُ ... لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُـونَ ﴾[1]، لا يُـرادُ مـن «التَّقـوى» نتيجـةٌ سُـلوكيّةٌ عابـرةٌ، وإنَّمـا يُـرادُ منهـا وعـيٌ رمـزيٌّ يتولَّـدُ مـن صِـراعِ الـذّاتِ مـع احتياجاتِهـا، فيتحـوَّلُ التَّشـريعُ إلـى مـرآةٍ لامتحـانِ القُـدرةِ علـى التّأويـلِ الأخلاقـيِّ للمُعانـاة.

وحتَّـى الـزَّكاةُ، التـي تَبـدو فـي ظاهِرهـا تَبرُّعًـا أو تَوزيعًـا للثَّـروةِ، لا تَخـرجُ فـي عُمقِهـا عـن كونِهـا فِعـلًا رمزيًّـا يُعيـدُ رسـمَ الحُـدودِ بيـنَ التّملُّـكِ والمَسـؤوليّةِ، بيـنَ المـالِ بوَصفِـه وسـيلةً والإنسـانِ بوَصفِـه غايـةً. فالفَريضـةُ التـي تَبـدأُ مـن حسـاباتٍ رقميّـةٍ تَنتهـي فـي رَمزيّـةٍ اجتماعيّـةٍ تُؤسِّـسُ لنَسـيجٍ تعاوُنـيٍّ، وتَجعـلُ مـن الاقتصادِ حركـةً أخلاقيّـةً لا مُجـرَّدَ تَـداوُلٍ حسـابيّ. وحيـنَ يَصِفُهـا القـرآنُ بأنَّهـا «تَطهيـر» و«تَزكيـة»، كمـا فـي قولـه تعالـى: ﴿ خُـذْ مِـنْ أَمْوَٰلِهِـمْ صَدَقَـةً تُطَهِّرُهُـمْ وَتُزَكِّيهِـم بِهَـا ﴾[2]، فـإنَّ فعـلَ «الأخـذ» يُفهَـمُ كفِعـلٍ رَمـزيٍّ يُطهِّـرُ الدّاخـلَ، قبـلَ أن يُخفِّـفَ مـن الفَـوارقِ الخارجيّـة.

أمّـا الحـجُّ، فهـو فـي البنيَـةِ القرآنيّـةِ إعـادةُ ولادةٍ رَمزيّـةٍ للإنسـانِ، يُعـادُ فيهـا ترتيـبُ الزَّمـانِ والمَـكانِ، ويُخلَـعُ فيهـا اللِّبـاسُ، وتُمحـى الفَـوارِقُ، فيَتجـرَّدُ الكائـنُ مـن طبقاتِـه الخارجيّـةِ، ويَعـودُ إلـى جَوهـرِه الأوَّلِ. الكعبـةُ تُصبِـحُ مركـزًا للـدَّورانِ الوُجـوديِّ حـولَ مَعنـى التَّوحيـدِ، والوقـوفُ بعَرَفـة يتحـوَّلُ إلـى لحظـةٍ رَمزيّـةٍ للعَـرضِ الكونـيِّ، كأنَّمـا يُعيـدُ الإنسـانُ تَموضُعَـه فـي التّاريـخ. ولا يَخفـى كيـفَ يَختـزِلُ اللّـهُ شـعائرَ الحجِّ بعبارةٍ شَـديدةِ العُمـق: ﴿ لَـن يَنَـالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَـا وَلَا دِمَآؤُهَـا وَلَـٰكِـن يَنَـالُهُ ٱلتَّقْـوَىٰ مِنكُـمْ ﴾[3]، أي أنَّ الفِعـلَ الظّاهـريَّ لا قيمـةَ لـه مـا لـم يُترجَـمْ رَمزيًّـا إلـى حالـةِ تَقـوى، إلـى تأويـلٍ وُجـوديٍّ للمَناسـك، بكونِهـا إشـاراتٍ نحـوَ الدّاخـلِ لا حَـركاتٍ فـي الخـارج.

وفـي قلـبِ هـذا النِّظـام الرَّمـزيِّ، يأتـي الحـلالُ والحَـرامُ كبنيَـةٍ لغويّـةٍ وأخلاقيّـةٍ تُعيـدُ تشـكيلَ العَلاقـةِ بيـنَ الإنسـانِ والعالَـم. حيـنَ يُحـرَّمُ الخَمـرُ، يكـونُ المَنـعُ تَشـذيبًا رمزيًّـا للعَقـلِ مـن التَّخديـرِ، وللمجتمـعِ مـنَ الفَوضـى، ولـلإرادةِ مـن التبلُّـدِ، كمـا فـي قولـه تعالـى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَـا ٱلَّذِيـنَ ءَامَنُـوٓاْ إِنَّمَـا ٱلْخَمْـرُ وَٱلْمَيْـسِرُ وَٱلْأَنصَـابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْـسٌ

1- سورة البقرة، الآية 183.

2- سورة التّوبة، الآية 103.

3- سورة الحجّ، الآية 37.

مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]، فالتَّحريمُ هنا هو عمليّةُ فَرزٍ رَمزيٍّ بينَ ما يَبني العَقلَ وما يَهدمُه، بينَ ما يَخلقُ الإنسانَ وبين ما يُبدِّدُه.

وممّا يُعمِّقُ هذه الرُّؤيةَ الرَّمزيّةَ للتَّكليفِ أنَّ القرآنَ يَربطُ بينَ «الاستجابة» و«الوجود»، إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[2]، حيثُ يُصبحُ الامتثالُ أمرًا مُحيِيًا لا مُقيِّدًا، فعلَ بناءٍ لا تَقليص، ويُعادُ فَهمُ الشَّريعةِ كحياةٍ تُستعادُ في لحظةِ التوجُّهِ إلى اللّه. فكلُّ حُكمٍ هو دَعوةٌ إلى الحَياة، وكلُّ نَهيٍ هو تَحذيرٌ من المَوتِ الرَّمزيِّ الذي يُصيبُ الإنسانَ حينَ يُسقِطُ المَعنى من أفعالِه.

وبذلك، فإنَّ التَّكليفَ في القرآنِ لا يُمكِنُ أن يُقرأ دونَ مفاتيحِ الرَّمز، الذي يُعدُّ رسالةً مُشفَّرةً، تَحتاجُ إلى تأويلٍ، وتُربِّي على التَّفكيرِ، وتُعيدُ تَرتيبَ الأولويّاتِ في حركةِ الفَردِ والمُجتمع. التَّشريعُ القرآنيُّ يُقصَدُ به التَّنشئةُ، عبرَ تَحريرِ الإنسانِ من عبوديّتِه الخَفيّةِ لِما اعتادَ عليه، وإعادتِه إلى مركزِ المَعنى؛ لِيَبنيَ حضارتَه كفاعلٍ رَمزيٍّ يَحملُ في كلِّ فِعلٍ تَشريعيٍّ بُعدًا وجوديًّا يُضيءُ قلبَه، ويُنظِّمُ حياتَه.

استحضار الغَيب في صناعة المَعنى الحضاريّ

في قلبِ البنيَةِ الرَّمزيّةِ للقرآنِ يتصدَّرُ الغَيبُ بوَصفِه البُعدَ الأكثرَ كثافةً وعُمقًا في تشكيلِ الوَعي الحَضاريّ. فالغَيبُ يُطرحُ كأُفقٍ تأويليٍّ مُتعالٍ يَتداخَلُ في كلِّ ما هو مَرئيٌّ؛ لِيُعيدَ تَرسيمَ العَلاقةِ بينَ الإنسانِ والوجودِ، بينَ الحاضرِ والمَصيرِ، بينَ الفِعلِ اللَّحظيِّ والنَّتيجةِ الكونيّةِ. فالمُؤمنُ الحقُّ، بحسب القرآنِ، هو مَن يَستحضِرُ الغَيبَ بوَصفِه حضورًا أعلى، يَصوغُ اختياراتِه، ويَشحنُ سُلوكَه بالمَعنى. ولذلك، حينَ بَدأ القرآنُ بصفاتِ المُتَّقينَ بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[3]، لم يكنِ الغَيبِ هنا عُنصرًا مَعرفيًّا ثانويًّا، وإنَّما كانَ شَرطًا وجوديًّا أوَّليًّا، يَسبقُ الصَّلاةَ والإنفاقَ، ويُؤسِّسُ لتَصوُّرٍ مُختلفٍ تمامًا للواقع.

على أنَّ الغيبَ في القرآنِ لا يُناقِضُ العَقلَ، وإنَّما هو امتدادٌ له في أُفُقِ المَعنى؛

1- سورة المائدة، الآية 90.

2- سورة الأنفال، الآية 24.

3- سورة البقرة، الآية 3.

إذ يطلبُ من الإنسانِ أن يُفسِّرَ الحاضرَ تَفسيرًا مُتجاوِزًا، يَنقلُه من السَّطحِ العَينيِّ إلى العُمقِ الرَّمزيّ. فعَقيدةُ «السّاعة» تُستدعى في القرآنِ لتَصحيحِ مَسارِ الواقِعِ، بوَصفِها لحظةَ كشفٍ تُعيدُ كلَّ شيءٍ إلى مَوضعِه الحقِّ، وتَجعلُ مِن العَدالةِ جَوهرًا حاضِرًا في الوَعي، إذ يقول تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[1]. فالميزانُ، كأداةٍ رمزيّةٍ للحسابِ، هو بنيةٌ أخلاقيّةٌ يَنبغي أن تُستحضَرَ في بناءِ المجتمعِ، وتُؤسِّسَ لمَفاهيمِ العَدلِ في الاقتصادِ والسِّياسةِ والحقِّ.

ويَمتدُّ الغَيبُ في القرآنِ إلى مَنظومةٍ كاملةٍ من المَفاهيمِ الرَّمزيّةِ التي تُؤسِّسُ لحُضورٍ مَعنويٍّ دائمٍ؛ فالجنّةُ تَمثيلٌ رَمزيٌّ للحياةِ الطّاهرةِ المُمكنةِ، والنّارُ انعكاسٌ رَمزيٌّ للعَذابِ الوُجوديِّ الذي يَعيشُه الإنسانُ حينَ يَفقدُ المَعنى. وحينَ يُصوِّرُ القرآنُ الجنّةَ بأنَّها: ﴿ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾[2]، فإنَّه يَفتحُ أُفُقًا رَمزيًّا لحَجمِ الإمكانِ الذي يَنتظِرُ الإنسانَ حينَ يَسمو، ويُوظِّفُ الجمالَ والاتِّساعَ كصورةٍ تُغريَ الوَعيَ بالسَّعي والتّحوُّلِ.

ويَبلغُ هذا الحضورُ الرَّمزيُّ للغَيبِ ذروتَه في استدعاءِ مَفاهيمَ، مثلِ «العَرش»، و«اللَّوح المَحفوظ»، و«الكتاب»، كرُموزٍ لمَراكزِ الأمرِ والتَّنظيمِ والكتابةِ الكُبرى التي تُدارُ بها الحياةُ. فالعَرشُ، مثلًا، رمزٌ مَركزيٌّ للهَيمنةِ والتَّدبيرِ الكلِّيّ الذي يُنظِّمُ الكونَ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ ﴾[3]، واللَّوحُ رمزٌ لحِفظِ المَعنى ودَوامِه، واستمراريّةِ الحقِّ في وجهِ التَّحريف.

في هذا السِّياقِ، يَغدو الغيبُ أداةَ بناءٍ حضاريّ. فمِن دُونِ الغَيبِ يَفقدُ الإنسانُ بوصلةَ المَعنى، ويَختزِلُ وجودَه في الاستهلاكِ والتَّكرارِ، أمّا حينَ يَحضرُ الغيبُ في وَعيِه الرَّمزيّ، فإنَّه يَشحَذُ خيالَه الأخلاقيَّ، ويَمنحُه أفقًا أوسعَ من المُكافأةِ العاجلةِ. إنَّه ما يَجعلُ مِن الفعلِ الصَّغيرِ فعلًا كونيًّا، ومِن التَّضحيةِ المَحدودةِ مشاركةً في المَعنى الأكبرِ. والغيبُ هو ما يَربطُ الزَّكاةَ بالرَّحمةِ، والصَّبرَ بالأملِ، والجهادَ بالشَّهادةِ، كحياةٍ أبديّةٍ خالدةٍ: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ ﴾[4].

وعلى مُستوى الأُمّةِ، يُصبحُ حضورُ الغَيبِ شرطًا لإعادةِ تَعريفِ الهُويّةِ الجماعيّة.

1- سورة الأنبياء، الآية 47.

2- سورة آل عمران، الآية 133.

3- سورة يونس، الآية 3.

4- سورة آل عمران، الآية 169.

فالأُمّةُ المُؤمنةُ تتأسَّسُ على استحضارِ المَعنى الغَيبيِّ في كلِّ مَشروعِها الحَضاريّ: أنْ تَبني وهي تُؤمِنُ بالآخرة، أنْ تَزرعَ وهي تتطلَّعُ إلى الحَصادِ في ميزانٍ آخَرَ، أن تُقيمَ العَدلَ وهي تَعلَمُ أنَّ الظُّلمَ لا يَدومُ؛ لأنَّ الحسابَ قادِمٌ. إنَّ الغَيبَ ليس وَعدًا ميتافيزيقيًّا، وإنَّما هو أفقٌ للتَّجاوزِ الدّائم، ومَصدرٌ للتَّوازنِ بينَ الحِلم والواجبِ، بينَ الأملِ والعملِ، بينَ التّرفُّعِ عن عبثِ العالَم، والاشتباكِ العَميقِ معَ الواقع.

لذلك، فإنَّ حضورَ الغيبِ في القرآنِ هو بدايَةُ المَعنى، ودخولِ التّاريخِ بأدواتٍ أُخرى، أعظمُها الوَعيُ بالامتدادِ، والرُّؤيةُ الشّاملةُ، والتّحرُّرُ من استبدادِ اللَّحظة. وبهذا، تتجلَّى الرَّمزيّةُ الغَيبيّةُ بوَصفِها القلبَ النّابضَ للمَشروعِ القرآنيّ، لا تَغيبُ عن السِّياسةِ ولا الاقتصادِ، ولا تَنفصِلُ عن القانونِ ولا الثَّقافة، بل تَنسربُ في كلِّ تَفصيلةٍ، لتَجعلَ من كلِّ لحظةٍ بسيطةٍ فعلًا مُؤسِّسًا، ومِن كلِّ سَعيٍ ماديٍّ بذرةً في معمارٍ لا يَرى الإنسانُ قمّتَه إلّا إذا ارتقَى ببَصيرتِه.

الرَّمز والزَّمان

الزَّمنُ في القرآنِ هو كيانٌ رمزيٌّ نابضٌ يَشتغِلُ في تَشكيلِ الوَعي، ويُعيدُ إنتاجَ الفِعلِ ضمنَ نسقٍ من المَعاني المُتداخلة. إنَّه نسيجٌ من الدّلالاتِ التي تُوجِّهُ الإدراكَ، وتُحمِّلُ اللَّحظةَ بحُمولةٍ وجوديّة، فلا تَغدو الأيّامُ تَكرارًا، ولا الأعوامُ مَحضَ دوراتٍ فلكيّةٍ، وإنَّما يُعاد تأويلُ الزَّمنِ في القرآنِ بوَصفِه اختبارًا مستمرًّا، ومعيارًا للمسؤوليّة، وساحةً لحضورِ الغَيب، ونقطةً مفصليّةً في حركةِ التّاريخ.

وحينَ يُقسِمُ اللّهُ تعالى بـ﴿ ٱلۡعَصۡرِ ﴾[1]، إنَّما يُقسِمُ بلحظةٍ زَمنيّةٍ مَشحونةٍ بالتّحوُّلِ، تُمثِّلُ المُفترقَ بينَ الثَّباتِ والانهيار، بينَ الإدراكِ والغَفلة. العَصرُ صورةٌ رَمزيّةٌ للزَّمنِ المَشحونِ بالتحدِّي، ولذلك يُربَطُ الخُسرانُ في السُّورةِ بمَن لا يَملكونَ استثمارَ هذه اللَّحظة، في حين يُستثنى من ذلكَ مَن امتلكَ مَنظومةً قِيَميّةً رُباعيّةً: الإيمان، العَمل، الحقّ، الصَّبر، أي مَن أسكنَ الزَّمانَ معنًى، ولم يَترُكْهُ يَنسابُ بلا بَصمة.

كما أنَّ الأيّامَ في القرآنِ تُمنحُ وظيفةً رَمزيّةً تتجاوزُ التَّتابُعَ. ففي قوله تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2]، يُقصَدُ بالأيّامِ الدَّورةُ الحضاريّةُ نفسُها،

1- سورة العصر، الآية 1.

2- سورة آل عمران، الآية 140.

حيثُ تتحوَّلُ الأيّامُ إلى رموزٍ للتَّمكينِ والانكسارِ، للبأسِ والرَّخاءِ، لحركةِ السُّننِ بينَ الأمم. فاليومُ هو فاعلٌ رَمزيٌّ يَحملُ في طيّاتِه مَفهومًا للتَّداوُلِ، للامتحانِ، للذّاكرةِ الجَماعيّة. الزَّمنُ هنا يَشتغِلُ كأداةِ عَدالةٍ، وكمُنبِّهٍ حضاريّ، وككَشفٍ لمَحدوديّةِ القوّةِ إنْ لم تَرتكِزْ على القِيَم.

ويَبرزُ في القرآنِ مفهومُ «الأجلِ»، الذي يُفهَمُ كرَمزٍ لنهايةِ المُهلةِ، ونقطةِ الحَسم. وسواء كان أجلَ الأفرادِ أو الأمم، فإنَّ ذِكرَ الأجلِ يأتي ليُعيدَ للإنسانِ وعيَه بمَحدوديّتِه، وضرورةِ أنْ يكونَ فعلُه مَشحونًا بالمَعنى قبلَ أن يَنقضيَ الوَقتُ. يقول تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1]؛ حيثُ يتحوَّلُ الأجلُ إلى رمزٍ لوُجوبِ المُبادرةِ، ورَفضِ التّأجيلِ، وحَسمِ المَوقفِ في الحاضرِ؛ لأنَّ الاستمرارَ ليس مَضمونًا، ولا الزَّمنُ قابلٌ للمُساوَمة.

ويتكرَّرُ في القرآنِ الحديثُ عن «اليوم الآخر»، كبنيةٍ رمزيّةٍ تُؤسِّسُ لحضورِ القِيَم في الزَّمنِ الحاضرِ. فالإيمانُ باليَومِ الآخرِ هو استحضارُ مَعناهُ في كلِّ فعلٍ: أن يكونَ الحسابُ نصبَ العَين، وأن يُسكَنَ الفعلُ اللَّحظيُّ وَزنًا أُخرويًّا. حينَ يَرتبطُ «الإنفاق» بالإيمانِ باليوم الآخرِ، كما في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[2]، فإنَّ الإنفاقَ يُمارَسُ كتَرسيخٍ لرَمزيّةِ الزَّمنِ في مُعادلةِ العَطاءِ والمَصير.

أمّا التَّلاعُبُ بالزَّمنِ، فيَأتي في القرآنِ مُحمَّلًا برَمزيّةِ الاغترابِ عنِ الفطرةِ. حينَ يُذكِّرُ اللّهُ المُشركينَ بعدَ أن طالَ عليهمُ الأمدُ، في قوله: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ... وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[3]، فإنَّ «طولَ الأمَدِ» يُفهَمُ كرَمزٍ لغَفلةِ الوَعي، وابتعادِ القلبِ عن مركزِ المَعنى، وكأنَّ القَسوةَ لا تَنبعُ من الخارجِ، بمقدارِ ما تَنبعُ من تَضييعِ الزَّمنِ الدّاخليّ.

ويتكرَّرُ في القرآنِ الحضورُ المُكثَّفُ للَّيلِ والنَّهارِ، كبنيةٍ رَمزيّةٍ تُشيرُ إلى التَّوازنِ؛ اللَّيلُ رمزٌ للسَّترِ والتَّأمُّلِ، والنَّهارُ رمزٌ للانكشافِ والمُواجهةِ. ولهذا، حينَ يَربطُ القرآنُ قيامَ اللَّيلِ بالخُشوعِ والاتِّصالِ، في قوله: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا

1- سورة الأعراف، الآية 34.

2- سورة البقرة، الآية 274.

3- سورة الحديد، الآية 16.

وَأَقْـوَمُ قِيـلًا ﴾[1]، فإنَّـه يُحمِّـلُ الزَّمـنَ معنًى روحيًّا، ويَكشِـفُ عـن لحظةٍ يَصفـو فيهـا الوَعيُ ويَخـرجُ مـن ضَجيـجِ اليَـوم إلى سُـكونِ المَعنى.

ومِـن أعجَـبِ مـا في رمزيّـةِ الزَّمـنِ القرآنيّ اسـتحضارُ لحظةِ المَـوتِ نفسِـها كلحظةِ كَشـفٍ رَمـزيٍّ لـكلِّ مـا سـبقَ. فالقـرآنُ يُكثِـرُ مـن تَصويـرِ أحـوالِ النّـاسِ عنـدَ المَـوتِ؛ لأنَّ تلـك اللَّحظةَ تَختـزلُ مسـارَ الحَيـاةِ، وتُظهِـرُ قيمـةَ الزَّمـنِ بأثـرٍ رَجعيّ. يقـول تعالى: ﴿ يَـٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَـا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[2]، فيتحـوَّلُ النَّـدمُ إلى مرآةٍ رَمزيّةٍ تَكشِـفُ عـن فـراغِ اللَّحظةِ التي لـم تُسـتثمَرْ، والفرصـةِ التي ضاعَـت دونَ أن تُسـكنَ مَعنًى.

بهـذا، يتَّضـحُ أنَّ الزَّمـنَ فـي القـرآنِ هـو صُلـبُ الفعـلِ، وشـريكٌ لـه فـي صِناعـةِ المَعنى، وليـسَ مُجـرَّدَ إطـارٍ هامشـيٍّ. الرُّؤيـةُ القرآنيّـةُ تُعلِّـمُ الإنسـانَ أنَّ قيمةَ العُمـرِ تُقاسُ بمقـدارِ مـا يُشـحَنُ بالمَعنـى، وأنَّ الحضـارةَ يُعـدُّ فـي تَقييمِهـا طريقـةُ إدارتِهـا للزَّمـنِ: هـل يُسـتهلَكُ في اللَّغـوِ، أم يُسـتثمَرُ في التَّزكيـةِ؟ وهـل يُـرى كرَصيـدٍ حيـويٍّ أم كزمـنٍ اسـتهلاكيٍّ؟ ومـن هنـا، تتجلَّى الرَّمزيّـةُ الزَّمنيّـةُ فـي القـرآنِ كعنصـرٍ تأسيسـيٍّ فـي مشـروعِ الوَعـي الحَضـاريّ؛ لأنَّهـا تُحمِّـلُ الإنسـانَ مَسـؤوليّةَ كلِّ لحظـةٍ، وتَجعلُـه كائنًـا تاريخيًّـا مـن حيـثُ القُـدرةُ علـى إعـادةِ تَشـكيلِ الزَّمـنِ فـي ضَـوءِ الغايـةِ والمَعنـى.

الخاتمة

عنـدَ التّوغُّـلِ فـي بنيـةِ النّـصِّ القرآنـيّ، يُكشَـفُ الرَّمـزُ بوَصفِـه بنيـةً تأسيسـيّةً حاملـةً للمَعنـى، وقـوّةً مُضمَـرةً تَنسـجُ العَلاقـةَ بيـنَ الإنسـانِ والكـونِ والتّاريـخِ. الرَّمـزُ فـي القـرآنِ هـو لغـةُ الأصـلِ، التـي تتشـكَّلُ مـن التقـاءِ الصُّـورةِ بالحَقيقـة، ومـن امتـزاجِ الحـسِّ بالمَعنـى، ومـن تَسـامي اللَّفـظِ نحـوَ وظيفـةٍ تَتجـاوَزُ سـطحَ الدَّلالـةِ إلـى عُمـقِ التَّكويـنِ. فالقـرآنُ، كمـا ظهـرَ فـي المَباحـثِ السّـابقةِ، يَصـوغُ الإنسـانَ رَمزيًّـا فـي مُفتـرَقِ الطّيـنِ والـرُّوحِ، ويُحمِّلُـه رسـالةً لا يُمكِـنُ أن تُفهَـمَ دونَ التّأويـلِ. الطَّبيعـةُ نفسُـها، بمـا فيهـا مـن جبـالٍ وبحـارٍ ومُـدنٍ، تتحـوَّلُ مـن مـادّةٍ إلـى علامـةٍ، ومـن جغرافيـا إلـى نـصٍّ مفتـوحٍ على التّأويـلِ الحَضـاريّ.

ولا يَقـلُّ القَصَـصُ القرآنـيُّ أهمّيّـةً فـي هـذا المِعمـارِ، فهـي شـفراتٌ رمزيّـةٌ توضِّـحُ كيـفَ تتشـكَّلُ الحَضـاراتُ، وتَنهـارُ الأُمَـمُ، وتُختبَـرُ القِيَـمُ، في قلـبِ الصِّـراعِ المُتكـرِّرِ

1- سورة المزمّل، الآية 6.

2- سورة الزّمر، الآية 56.

بيـنَ الاسـتعلاءِ والتَّواضُـعِ، بيـنَ الرِّسـالةِ والهَـوى. كمـا أنَّ المجتمـعَ يُبنـى علـى أسـاسٍ مـن منظومـةٍ رَمزيّـةٍ للقِيَـمِ، يُعـادُ فيهـا تعريـفُ المُفـرداتِ المألوفـةِ، مثـل الفِتنـةِ والعَـدلِ والميـزانِ والنُّـورِ والطّاغـوتِ، ضمـنَ أفُـقٍ تأويليٍّ يُفـكِّكُ مـا هـو ظاهـرٌ، ليُعيـدَ تَرتيـبَ الخريطـةِ الذّهنيّـةِ للأمّـة.

أمّـا التَّكليـفُ، فقـد بـانَ فـي عُمقِه كدَعـوةٍ تأويليّـةٍ، يُختبَرُ فيها الإنسـانُ عبـرَ الطُّقوسِ لأجـلِ التحـوُّلِ. فالصَّـلاةُ، والصِّيـامُ، والزَّكاةُ، والحـجُّ، وسـائرُ الأحـكام، كلُّهـا تمارينُ رَمزيّـةٌ تَهـدفُ إلـى إعـادةِ هندسـةِ الدّاخـلِ، وتَفكيـكِ النَّزعـاتِ المُسـتقَرّةِ فـي النَّفـسِ، وإعـادةِ تَوجيـهِ الإنسـانِ نحـوَ مَركزيّـةِ التَّوحيـدِ، علـى مُستوى الإدراكِ الوجـوديّ للعالَـم.

وهكـذا، يَظهـرُ الرَّمـزُ فـي القـرآنِ كأداةِ خلـقٍ حَضـاريّ لا تقـلُّ عـن المُعجـزةِ اللُّغويّـةِ والبَلاغـةِ التَّشـريعيّةِ. إنَّـه هـو المَعنـى مُتجلّيًـا فـي صُـوَرٍ، ومَفاهيـمَ، وسـردٍ، وتَشـريعٍ، تَجعـلُ مـن القـرآنِ خارطـةً رَمزيّـةً كونيّـةً، يتأسَّـسُ عليهـا وَعـيُ الإنسـانِ، وتتجـدَّدُ بهـا ذاكـرةُ الأمّـةِ، ويُعـادُ بهـا بنـاءُ الحضـارةِ مـن الدّاخـلِ؛ حضـارة تُبنـى علـى المَعنـى قبـلَ أن تُشـيَّدَ فـي الحَجـر، وتُصـاغُ فـي العُمـقِ الرَّمـزيِّ للوُجـودِ قبـلَ أن تتجلَّـى فـي المُؤسَّسـاتِ والهَيـاكل.